(المقالات والآراء)

دراسة نقدية لكتاب
(دراسات في كتب التراجم والسِّيَر)(*)

د. عبد الكريم الأشتر

يتكون الكتاب من ثلاث دراسات متتابعة، تعد الأولى منها مقدمة تاريخية موطئة لدراسات موسعة في كتب التراجم والسير في الأدب العربي. وتتناول الدراستان الأخيرتان كتب التراجم في الشام، وفي المغرب العربي، على التوالي.

– أ –

ففي الدراسة الأولى ينهج الباحث نهجًا تاريخيًا موسعًا، فيختار عنوانًا يجمع بين دراسة «كتب التراجم والسيّر في الأدبين العربي والإنجليزي»، ويمهّد لدرسها بدراسة الممهِّدات الأولى لهذا الجنس الأدبي في العصور القديمة، ليخرج منها إلى «العصور الوسطى»، فيدرس كتبه في الأدب العربي، ثم ينتقل إلى عصر النهضة.

ولكن الباحث لم يقصر بحثه على الأدب الإنجليزي، وإنما تعداه إلى أدب الغرب كله، فتناول كتب التراجم والسيَر فيه قرنًا قرنًا، فذكر ما صدر منها في روسية، وفي فرنسة. وقد جمع بين مصطلح التراجم ومصطلح السيَر في هذه الصفحات كلها، ثم انتهى إلى أن يفرّق بين المصطلحين، ويميز من ثَمّ بين «السيرة الذاتية» وما سماه «السيرة الغيرية»، على نحو ما يميِّز الغربيون بينهما: بقولهم «السيرة» على إطلاقها، والسيرة الذاتية: (La biographie et l`autobiographie).

وهكذا ينتقل إلى دراسة (السيرة الذاتية العربية في العصر الحديث) دراسة

(*) للدكتور هاني العمد، الأستاذ في الجامعة الأردنية – عَمَّان ١٩٨١.

تاريخية، يتناول فيها بعض الكتب أحيانًا في موضعين أو ثلاثة (انظر الكلام على كتاب الساق على الساق للشدياق، والتعريف بابن خلدون) وربما عرض للكتاب فلم يسمّه إلا بعد أكثر من صفحتين. وربما خلط درسه أحيانًا بنقل الثناءات التي لا تُخفي الرغبة في مجاملة المؤلف. ولم تخل بعض الأحكام من الاضطراب، على مثال قوله: ((إن العرب قد اهتموا، شأن الشعوب الأخرى، بكتابة السيَر الذاتية أو الغيرية، منذ القرن الثاني الهجري)). ثم قوله، بعد أسطر قليلة، وفي الصفحة ذاتها: ((أما مرحلة كتابة السير الذاتية فلم تبدأ إلا في وقت متأخر، في القرن الخامس الهجري))!

إن ما أصاب هذه الدراسة الأولى من ارتباك، يعود بعضه، في رأيي، إلى غموض المصطلح الفني الذي ينبغي أن تُسأل عنه مجامع اللغة العربية في الوطن العربي، أكثر مما يُسأل عنه الباحث. فنحن، إلى اليوم، نضطرب في التفريق بين السيرة الذاتية التي نكتبها عن الآخرين، وبين السيرة الذاتية، كما أشرنا من قبل. وكان على الباحث أن يحدد مصطلحه، منذ الصفحة الأولى، ويلتزمه، من بعد، في بقية صفحات الكتاب، ما دمنا لم نفلح إلى اليوم في توحيد المصطلح.

ثم إن الباحث أحب أن يلتزم، على ما يبدو، في هذا القسم من بحثه، تخطيطًا كان اختاره بعضُ مَن كتب في ((فن السيرة))، فجرى على هذا النسق التاريخي، ورمى إلى أن يعرّف بهذا الجنس الأدبي وكتبه تعريفًا يجمع بين التاريخ والتحليل السريع. ولكنه هنا أخطأ الهدف، فخرج بحثه عن أن يكون دراسة مقارنة بين كتب السيرة في الغرب، وبينها في الأدب العربي. وخرج عن أن يكون أيضًا دراسة لكتب التراجم والسيَر في الأدب العربي تهتدي بخصائص هذا الجنس وتِقْنياته في الغرب. وبقي الكلام على السيَر الغربية يقوم مقام الاستيعاب التاريخي فحسب. لقد جمع الباحث في يديه مواد كثيرة مختلطة، زادها غياب المصطلح المحدد

اختلاطًا، وجهد جُهدًا عظيمًا في تشكيلها، فوقع في مثل ما أشرنا إليه من الارتباك أحيانًا.

ويخيل إليّ أن الباحث اعتمد، في أكثر ما كتبه عن السيَر والتراجم في الغرب، كتابًا واحدًا من الكتب الجامعة، فترجم عنه الأحكام، بحرفية لا تخلو من الغموض أحيانًا، ومن تقطع الصياغات أحيانًا أخرى. ونقل عنه أسماء الأعلام بحروفها اللاتينية، دون أن يضيف إليها تعريبها، فزاد ذلك من اضطراب الكلام في عين القارئ العربي الذي يجهلها، أو يعرفها في صورها العربية المتناقلة.

ثم إن في بعض ما قرره على كتب التراجم والسير العربية، يدل على أنه لم يطلع على هذه الكتب اطلاعًا وافيًا، وإنما قرأ عنها، أو عاد إلى مقدماتها في أحسن الأحوال (انظر كلامه مثلاً على عامِّيّةِ الحوار في كتاب الاعتبار، لأسامة ابن منقذ – ص٣٠).

فمن هذا الذي نقوله جميعًا احتشد الكلام على بعض الكتب، على نحوٍ لا يسعه العنوان أحيانًا، أو يضيق عنه الكلام أحيانًا. أو تفرق الكلام على الكتاب في مواضع متعددة، بمقتضى المرجع الذي يعود إليه في كل موضع. وربما أوقعه في مفارقات كالتي أشرنا إلى مَثَل منها، من قبل.

لقد كان في وسع الباحث أن يضبط مادة كتابه ويصرّفها بقدرته الذهنية المنظمة، واستعداده الجيد. كان في وسعه، بعد تحديد المصطلح، أن يقسم دراسته إلى ثلاثة فصول واضحة الحدود:

١- كتب التراجم في الموسوعات الكبيرة.

٢- السيرة المستقلة، في كتب مفردة (La biographie).

٣- السيرة الذاتية (L`autobiographie).

فكان حينذاك يمكنه، في كل فصل، أن ينظّم مادته، ويذهب، إن أحب، إلى المقدمات التاريخية المناسبة، ويدرس أشكال السيَر في مواضعها من كل فصل، ولونها العلمي والأدبي.

وتلتحق حينذاك دراسة ما سماه ((معاجم التراجم الحديثة)) بكتب التراجم في الموسوعات الكبيرة.

وتبقى، في هذا القسم من الكتاب أيضًا، أحكام تحتاج، في رأينا، إلى تأمل طويل، وإن حاول الباحث أن ينقلها، في البدء، من صف الأحكام إلى صف ما سماه ((المفاهيم))، مثل الكلام على ((النهضة العربية الثالثة)) إثر احتكاك الشرق بالغرب ((منذ الحروب الصليبية حتى الآن))! ومثل رأيه في السجع وخلطه بمفهوم الترادف، ومثل توفّر بعض عناصر البناء الفني الأساس في السير الذاتية العربية القديمة، وتأثرها، على إطلاقها، في القرن الماضي ((بالأسلوب المسجوع))، ومثل اتهام الطهطاوي وعلي مبارك بالدعوة إلى ((الانسلاخ عن ماضينا، والارتماء في أحضان الحضارة الغربية))! ومثل التفريق المختلط بين ((الأسلوب التحليلي التصويري)) و ((الأسلوب التفسيري التحليلي))، وجعل الفرد ((نواة التاريخ)) و((العامل الأساسي فيه)).

– ب –

أما الدراستان الأخيرتان (كتب التراجم الشامية) و (كتب التراجم المغربية)، فواضحتا الحدود، على سعة مادتهما، واقتصارِ الباحث فيهما على كتب التراجم العامة. ولا شك أن دراسة كتب التراجم المغربية تلفت القارئ إلى ضرورة الاهتمام بالمكتبة المغربية وفحصها، والوقوف على أسرارها وخفاياها، وفي إثبات وحدة الثقافة العربية، وتغلّبها على افتراق الحدود والسياسات. وقد

استطاع الباحث هنا أن يسجل كسبًا ممتازًا دلّ على عمق وعيه بوحدة الفكر العربي المتجلية في وحدة تراثه وتماثل خصائصه، على مدار الزمان.

– ج –

ثم إننا لو تجاوزنا هذه الملاحظات، وبعض الهَنات المنهجية المتمثلة في قلّة الحرص على تسمية المرجع في موضعه الدقيق، وتمييز كلام الباحث من كلام المؤلفين، بأقواس التنصيص، وتسوية الصياغات في مواضع النقول، ومثل تكرار الكلام بنصه أحيانًا، في أكثر من موضع، ونقص بعض المراجع الهامة، مثل معجم المؤرخين لصلاح الدين المنجد، وبعض السيَر الهامة كسيرة (جبران خليل جبران) لميخائيل نعيمة. وتجاوزنا بعض الهَنات اللغوية والارتباكات في صور التعبير، التي تستلزم معاودة النظر فيها لتقويمها، أو تخليصها من الركاكة واللَّبس.

أقول: إننا لو تجاوزنا هذا إلى جوهر الكتاب، تجلت لنا قدرة الباحث الواضحة على فهم خصائص السيرة ضمن حركة التاريخ القومي والإنساني، نلمسها في مواضع ساطعة من الكتاب، قد يمثل لها قوله: «ليس من شك في أن كتابة تاريخ الرجال إسهام، من نوع ما، في تفهم الطبيعة البشرية، لا مجرد رواية الأحداث الحياتية، والإشارة إلى سنة الولادة والتحصيل العلمي والهوايات. إن الحديث عن الفرد والوقوف على حالاته وأوضاعه النفسية والعاطفية يدفعنا إلى القول بأن كتابة الترجمة يجب أن تكون مغامرة شخصية بحتة».

ومثل قوله: «الواقع أن السيرة الذاتية العربية، حتى عصر النهضة الحديثة، قد خضعت للروح العام الذي كان يوجه الفكر العربي، شأنها في ذلك شأن سائر الصنوف، كالتاريخ والشعر. ولكنها مع ذلك لم تستسلم لهذا التيار أو ذاك. فقد تميزت بعض الترجمات الذاتية بخصائص قلما نجدها في غيرها من الفنون،

كالاعتراف بالنقائص الشخصية، والمجاهرة بالخروج على الأفكار السائدة، والتصريح بالشكوك حول اعتقادات الناس».

ومثل قوله، في قيمة الاعترافات والمذكرات واليوميات: «التي نبهت كتّاب التراجم والسير إلى قيمة الغموض في أعماق النفس الإنسانية واستبطانها. وهنا تكمن – كما يقول – قيمة التأمل والتعليل والتحليل والتقاط الجزئيات، والنفاذ من هذا كله إلى معان كبيرة تشكل من ثم الخطوط الإنسانية في حوار الشخصية المرسومة».

ومثل رصده تأثر السيرة الحديثة بالعلوم الإنسانية ومكتشفاتها الهامة، وبعلوم البيولوجيا والطب.

نضيف إلى ذلك سعة المادة المدروسة، وشمولها خصائص بيئاتها المختلطة، مما يُمكِّن أن نستخلص منه قوة الحس التاريخي في التراث العربي، وشدة اتصال العربي بموطنه، على عكس ما يُشيع بعض الناس.

ولعل الجديد في هذه الدراسة يكمن في طموح الباحث إلى رصد هذا التراث المترامي وتصنيفه، واكتشاف أهم خصائصه، ولفت النظر إلى المكتبة المغربية وثرائها بمعجمات الرجال والطبقات، وتثبيت وحدة الثقافة العربية، على امتداد الوطن العربي واختلاف أقاليمه، وعلى مدار التاريخ، ثم النص على قيمة هذا الجنس الأدبي في إضاءة زوايا تاريخية وأدبية مهملة.